التطبيق (09)

المدةُ: ساعة
الفئةُ المُستهدفةُ: طلبة السنة الثانية ليسانس ل م د

نظرية الخلق

مَا يُمَيِّزُ هَذِهِ النظريةَ هُوَ التَرْكِيزُ المُطْلَقُ عَلَى العَمَلِ الأَدَبِي، بَعِيْدًا عَنْ الاِعْتِبَارَاتِ الأُخْرَى، كَحَيَاةِ الشَاعِرِ، وَالبِيئَةِ والخَلْفِيَّةِ الاِجْتِمَاعِيَةِ، وغَيْرَ ذَلِكَ، فَالعَمَلُ الأَدَبِيُ عِنْدَ نُقَادِ هَذِهِ المَدْرَسَةِ هُوَ خَلْقُ شَيْءٍ جَدِيدٍ مُسْتَقِلٍ، لَهُ قَوَانِينُهُ الخَاصَةُ، ومِنْ ثَمَّ فَإِنَّ مُهِمَةَ النَاقِدِ عِنْدَهَا لَيْسَتْ فِي "أَنْ يَكْشِفَ عَمَّا يُعَبِّرُ عَنْهُ العَمَلُ الفَنِيُ، بَلْ أَنْ يَرَى العَمَلَ فِي ذَاتِهِ وَلِذَاتِهِ، فَلاَ يُقَيِّمَهُ بِمَقَايِيسٍ خَارِجَةٍ عَنْهُ، سَواءٌ أَكَانَتْ هَذِهِ المَقَايِيسُ خُلُقِيَّةً أَوْ اِجْتِمَاعِيَةً أَوْ تَارِيخِيَةً أَوْ لُغَوِيَةً؛ لِأَنَّ كُلَّ مَا لاَ يَنْبُعُ مِنَ العَمَلِ الفَنِي نَفْسِهِ هُوَ فِي الوَاقِعِ دَخِيلٌ عَنْهُ"، لِذَلِكَ رَفَضَ "إليوت" رَبْطَ الأَدَبِ بِحَيَاةِ الأَدِيبِ وَبِالمُجْتَمَعِ، وَرَأَى أَنَّ الأَدَبَ لَيْسَ تَعْبِيرًا عَنْ شَخْصِيَةِ الأَدِيبِ وَإِحْسَاسَاتِهِ، ذَلِكَ أَنَّ العَمَلَ الفَنِيَ لاَ يَنْقُلُ الإِحْسَاسَ كَمَا هَوَ، بَلْ يُجَسِّمُهُ فِي شَيءٍ جَدِيدٍ مَوضُوعِيٍ يُعَادِلُهُ أَوْ يُسَاوِيهِ، وَهُوَ مَا سَمَّاهُ بِـ"المُعَادِلِ المَوضُوعِي" " Corrélatif Objectif"، كَمَا أَنَّهُ "قَدْ يُصَوِّرُ لَنَا الحَيَاةَ، وَلَكِنَّهُ لَيْسَ صُورَةً لَهَا، وَهُوَ لَيْسَ مُعَادِلاً لِلحَيَاةِ، أَوْ بَدِيلاً عَنْهَا؛ لِأَنَّ مَا يُزَوِّدَنَا بِهِ يَخْتَلِفُ عَمَّا تُزَوِّدُنَا بِهِ الحَيَاةُ، فَالعَمَلُ الأَدَبِيُ لاَ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ إلاَّ صُورَةً لِنَفْسِهِ فَقَط؛ بِمَعْنَى أَنَّهُ لاَ يُمْكِنُ أَنْ يُزَودَنَا بِشَيءٍ خَارِجٍ عَنْ نِطَاقِهِ؛ لِأَنَّ قِيمَةَ العَمَلِ الأَدَبِي لَيْسَتْ فِيمَا يَمُدُنَا مِنْ مَعْلُومَاتٍ أَوْ خِبْرَاتٍ مُطَّلَعَةٍ، بَلْ فِي الأَثَرِ المُعَيَّنِ الذِي يُحْدِثُهُ فِي نُفُوسِنَا كَمَا هُوَ-كَامِلاً مَحْدُودًا-، كَمَا خَلَقَهُ الفَنَانُ"، لِذَلِكَ اِتَّخَذَتْ مَدْرَسَةُ النَقْدِ الجَدِيدِ مِنْ نَظَرِيَةِ الخَلْقِ "أَسَاسًا لِفَلْسَفَتِهَا الفَنِيَةِ، وَهَذِهِ النَظَرِيَةُ تَلْتَقِي فِي بَعْضِ جَوَانِبِهَا بِنَظَرِيَةِ التَعْبِيرِ الرُومَانْسِيَةِ، بِوَصْفِهَا نِتَاجَ الطَبَقَةِ البُرْجوَازِيَةِ وَنِظَامِهَا الرَأْسمَالِي، بِحَيثُ عَكَسَتْ "نَظَرِيَةُ التعبيرِ" مَرْحَلَةَ صُعُودِ تَلْكَ الطَبَقَةِ، وَعَبَّرَتْ عَنْ فَلْسَفَتِهَا وَرُؤَاهَا، بَيْنَمَا جَاءَتْ "نَظَرِيَةُ الخَلْقِ" لِتُمَثِّلَ مَرْحَلَةَ أُفُولِ الطَبَقَةِ البُرْجوَازِيَةِ،

عَاكِسَةً أَزْمَةَ الفِكْرِ فِي أُورُوبَا أَوَاخِرَ القَرْنِ 19م وَأَوَائِلَ القَرْنِ 20م، فَفِي الوَقْتِ الذِي أَوْلَتْ فِيهِ الحَرَكَةُ الرُومَانسِيَةُ الأَهَمِيَّةَ البَالِغَةَ لِذَاتِ الفَرْدِ وَعَالَمِهِ الدَاخِلِي، وَعَلَى الخَيَالِ، بِوَصْفِهِ الطَاقَةَ التِي تُسَاعِدُ عَلَى كَشْفِ العَالَمِ الخَاصِ بِالأَدِيبِ، جَاءَتْ نَظَرِيَةُ الخَلْقِ "لِتُعِيدَ صِيَاغَةَ الأَسَاسِ لِلفِكْرِ البُورجَوَازِي، وَلِتُعَبِّرَ عَنْ خَيْبَةِ أَمَلِهَا فِي فَرْدِيَةِ الإِنْسَانِ الرُومَانْسِي، الذِي أَسْرَفَ فِي الهُرُوبِ مِنَ الوَاقِعِ، وَأَسْرَفَ فِي تَأْلِيهِ الذَاتِ، وَفِي الثَورَةِ عَلَى القَوَاعِدِ الكَلاَسِيكِيَةِ، وَبِذَلِكَ عَجَزَ عَنْ إِدْرَاكِ العَلاَقَاتِ، التَي تَرْبِطُهُ بِهَذَا الوَاقِعِ.

وَقَدْ جَاءَتْ "نَظَرِيَةُ الخَلْقِ" كَرَدِ فِعْلٍ لِمَا أَصَابَ الأَدَبَ فِي أَوَاخِرِ القَرْنِ 19م، حَيثُ تَحَوّلَ إِلى سِلْعَةٍ فِي المُجْتَمَعِ البُرْجوَازِي، وَمِنْ ثَمَّ أَخَذَ بَعْضُ النُقَادِ عَلَى عَاتِقِهِمْ تَخْلِيصَ الأَدَبِ مِمَّا لَحِقَ بِهِ، نَتِيجَةَ إِسْرَافِ الأَدِيبِ الرُومَانْسِي ومُغَالاَتِهِ، فَظَهَرَتْ "مَدْرَسَةُ النَقْدِ الجَدِيدِ"، التِي تَزَعَّمَهَا "إليوت"، الذِي يُعَدُّ أَبَا المَفْهُومِ المَوضُوعِي لِلشِعْرِ، بِثَورَتِهِ عَلَى الرُومَانْسِيَةِ وَمَفْهُومِهَا لِلشِعْرِ، الذِي يَرَى أَنَّهُ: "تَعْبِيرٌ عَن العَوَاطِفِ الشَخْصِيَةِ"، كَمَا رَفَضَ المَنْهَجَ البِيُوغرَافِي فِي النَقْدِ، بِاعْتِبَارِهِ مَنْهَجٌ يُفَسِّرُ الأَدَبَ، عَلَى أَسَاسِ حَقَائِقِ حَيَاةِ المُؤَلِفِ وَظُرُوفِهِ الشَخْصِيَةِ.

مِنْ ثَمَّ خَلُصَ إِلى القَوْلِ بِـ"نَظَرِيَةِ الخَلْقِ"، التِي تَرْفُضُ أَنْ يَكُونَ الشِعْرُ تَعْبِيرًا عَنْ المَشَاعِرِ، كَمَا تَذْهَبُ الرُومَانْسِيَةُ، وَتَرَى "أَنَّ الشِعْرَ لَيْسَ تَعْبِيرًا عَن العَوَاطِفِ، وَلَكِنَّهُ هُرُوبٌ مِن العَوَاطِفِ، كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ تَعْبِيرًا عَن الشَخْصِيَةِ، وَإِنَّمَا هُرُوبٌ مِن الشَخْصِيَةِ"؛ أَيْ أَنَّ الشِعْرَ عِنْدَهُ لَيْسَ نَقْلاً لِلمَعَانِي أَوْ تَعْبِيرًا عَنْ الأَحَاسِيسِ، بَلْ هُوَ خَلْقٌ، وَهَذَا الخَلْقُ يَتِمُ بِإِيجَادِ مَا سَمَّاهُ "إليوت" بِـ"المُعَادِلِ المَوْضُوعِي" لِلأَحَاسِيسِ، فَالعَمَلُ الفَنِيُ عِنْدَهُ لاَ يَنْقُلُ الإِحْسَاسَ كَمَا هُوَ، بَلْ يُجَسِّدُهُ فِي شَيْءٍ يُعَادِلُهُ، ذَلِكَ أَنَّ الفَنَانَ يَقُومُ بِتَحْوِيلِ مَجْمُوعَةٍ مِنَ المَوضُوعَاتِ وَالمَوَاقِفِ وَالأَحْدَاثِ وَالمَشَاعِرِ، التِي خَبَرَهَا فِي حَيَاتِهِ إِلى شَيْءٍ جَدِيدٍ، يَخْتَلِفُ عَنْهَا مِنْ نَاحِيَةٍ، وَيُعَادِلُهَا وَيُجَسِّمُهَا مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى، وَبِذَلِكَ يَكُونُ العَمَلُ الشِعْرِيُ

عِنْدَ "إليوت" هُوَ بِمَثَابَةِ كَيَانٍ مُتَكَامِلٍ وَمُسْتَقِلٍ عَن العَنَاصِرِ المُحِيطَةِ بِهِ، بِحَيثُ يَتَمَتَّعُ "بِحَيَاةٍ ذَاتِيَةٍ، لاَ تَعْتَمِدُ إطْلاَقًا عَلَى مُؤَلِفِهِ أَوْ ظُرُوفِ تَأْلِيفِهِ"؛ لِأَنَّ العَمَلَ الفَنِيَ أَوْ الشِعْرِيَ عِنْدَهُ خَلْقٌ، وَهَذَا الخَلْقُ "هُوَ ثَمْرَةُ التَوَازُنِ بَيْنَ العَقْلِ وَالعَاطِفَةِ، بَيْنَ مَا يُسَمِيهِ "إليوت" القُوَّةَ النَاقِدَةَ، وَالقُوَّةَ الخَالِقَةَ عِنْدَ الشَاعِرِ، إنَّ الشَاعِرَ يَنْفَعِلُ بِمَوضُوعِهِ وَيَتَعَاطَفُ مَعَهُ، وَعَلَيْهِ أَلاَّ يُعَبِّرَ عَنْ اِنْفِعَالِهِ، بَلْ عَلَيْهِ أَنْ يُوجِدَ لِهَذَا الاِنْفِعَالِ مُعَادِلاً مَوضُوعِيًا يَسَاوِيهِ وَيُوَازِيهِ وَيُحَدِّدَهُ"، وَهُو يَرْتَكِزُ فِي ذَلِكَ إلى الجَانِبِ الفَنِي وَتِقَنِيَاتِهِ، مِمَّا جَعَلَهُ يَلْتَقِي بِالاِتِجَاهِ الجَمَالِي أَوْ مَا يُعْرَفُ بِمَذْهَبِ "الفَنِ لِلفَنِ"، الذِي يرْفُضُ تَوظِيفَ الأَدَبِ وَالفَنِ فِي خِدْمَةِ أَهْدَافٍ مُعَيَّنَةٍ، حَيثُ شَنَّ هُجُومًا عَلَى المَذَاهِبِ الأَدَبِيَةِ المُخَالِفَةِ لِفَلْسَفَتِهِ وَرُؤْيَتِهِ، وَبِخَاصَةٍ تَلْكَ المَذَاهِبُ الحَدِيثَةُ الرَافِضَةُ لِلفِكْرِ الكَلاَسِيكِي، وَلِقَوَاعِدِهِ الأَدَبِيَةِ وَالأَخْلاَقِيَةِ، وَلَمْ تَكْتَفِ المَدْرَسَةُ المَوضُوعِيَةُ بِذَلِكَ، بَلْ رَاحَتْ تَدْعُو إلى إحْيَاءِ التُرَاثِ الكَلاَسِيكِي وَمَبَادِئِهِ العَامَةِ، وَجَعْلِهِ أَسَاسًا فِي العَمَلِيَةِ الإبْدَاعِيَةِ، بِحَيثُ لاَ يُمْكِنُ لِلكَاتِبِ أَنْ يُبْدِعَ إلاَّ بَعْدَ إلمَامِهِ إلمَامًا صَحِيحًا بِهَذَا التُرَاثِ، أَو مَا سَمَّاهُ "إليوت" بِالتَقْلِيدِ، وَأَنْ يَشْمُلَ إلمَامَهُ الأَخْلاَقَ وَاللاَهُوتَ، التِي تُعَدُّ مِنْ مُمَيِّزَاتِ الأَدَبِ العَظِيمِ، حَسَبَ رَأْيِهَا، وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ "هَاجَمَ "إليوت" الأَدَبَ الدِيمُقْرَاطِي، وَالأَدَبَ الفَاشِيَ، وَالأَدَبَ السُرْيَالِيَ، كَمَا هَاجَمَ الرُومَانسِيَةَ وَالوَاقِعَيَةَ وَالطَبِيعِيَةَ، وَعَامَةَ المَذَاهِبِ الأَدَبِيَّةِ، التِي لاَ تَخْدُمُ الإلَهِيَاتَ وَالأَخْلاَقَ الدِينِيَةَ بِالمَعْنَى الكَاثُولِيكِي".

إنَّ مَدْرَسَةَ "النَقْدِ الجَدِيدِ" -التِي جَاءَتْ بِـ"نَظَرِيَةِ الخَلْقِ"، كَرَدِ فِعْلٍ لِطُغْيَانِ الذَاتِ فِي العَمَلِ الشِعْرِي-، قَدْ اِنْتَهَتْ إلى إنْكَارِ الذَاتِ وَمُحَاوَلَةِ تَشْيِيئِهَا، وَهِيَ بِذَلِكَ اِتَّجَهَتْ إلى دِرَاسَةِ العَمَلِ الأَدَبِي كَظَاهِرَةٍ فَنِيَةٍ مَفْصُولَةٍ عَنْ جُذُورِهَا وَأَسْبَابِهَا الحَقِيقِيَةِ، وَعَنْ غَايَاتِهَا، الشَيْءُ الذِي جَرَّهَا إلى الوُقُوعِ فِي أَخْطَاءٍ كَثِيرَةٍ، نَتِيجَةَ عَجْزِهَا عَنْ الوُصُولِ إلى كَشْفِ القَوَانِينِ المَوضُوعِيَةِ، التِي تَتَحَكَّمُ فِي حَرَكَةِ المُجْتَمَعِ وَالتَارِيخِ مِنْ نَاحِيَةٍ، وَتَحْدِيدُ عَلاَقَةِ الفَرْدِ بِالمُجْتَمَعِ مِنْ نَاحِيَةٍ ثَانِيَةٍ، وَلِذَلِكَ نَظَرَتْ إلى العَمَلِ الأَدَبِي كَشَيْءٍ مُغْلَقٍ، لَهُ قَوانِينُهُ الخَاصَةُ

بِهِ، وَلَمْ تَنْظُرْ إِلَيْهِ كَنِتَاجٍ لِالْتِقَاءِ الذَاتِ بِالمَوضُوعِ؛ أَيْ الوَاقِعَ، رُغْمَ قَوْلِهَا بِأَنَّهُ مُعَادِلٌ لِشَيْءٍ، وَهَذَا الشَيْءُ يُؤَكِّدُ وُجُودَ صِلَةٍ مَا بَيْنَ هَذَا العَمَلِ الفَنِي وَالفَنَانِ، بِوَصْفِهِ الخَالِقَ لِهَذَا المُعَادِلِ؛ وَهُوَ مَا يَعْنِي وُجُودَ عَلاَقَةٍ بَيْنَ هَذَا العَمَلِ الفَنِي وَالوَاقِعِ المَوضُوعِي، الأَمْرُ الذِي تَنْفِيهِ هَذِهِ المَدْرَسَةُ –ظَاهِرِيًا عَلَى الأَقَلِّ-، حَيثُ يَنْصَبُّ اِهْتِمَامُهَا عَلَى فَنِيَةِ الآثَارِ الأَدَبِيَةِ، المُتَمَثِلَةُ فِي الصِيَاغَةِ وَالبِنَاءِ الفَنِي، شَأْنُهَا فِي ذَلِكَ شَأْنُ مَعْظَمِ المَدَارِسِ النَقْدِيَةِ، التِي تَسْتَنِدُ فِي رُؤْيَتِهَا إِلى الفَلسَفَةِ المِثَالِيَةِ، غَيْرَ أَنَّ المُتَتَبِعَ لِتَطَوُّرِ رُؤْيَةِ هَذِهِ المَدْرَسَةِ يَكْتَشِفُ وُجُودَ تَرَاجُعٍ عَنْ هَذَا التَصَوُّرِ، وَذَلِكَ بِالعَودَةِ إِلى التَأْكِيدِ عَلَى ضَرُورَةِ رَبْطِ الأَدَبِ بِالمُجْتَمَعِ، وَأَنَّ قِيمَتَهُ كَمَا يَقُولُ "إليوت": "لاَ يُمْكِنُ أَنْ تَتَحَدَّدَ بِالمَعَايِيرِ الأَدَبِيَةِ وَحْدَهَا، بِالرُغْمِ مِنْ أَنَّنَا يَجِبُ أَنْ نَتَذَكَّرَ أَنَّهُ لاَ يُمْكِنُ التَفْرِقَةُ بَيْنَ الأَدَبِ وَغَيْرِهِ، إِلاَّ بِالمَعَايِيرِ الأَدَبِيَةِ وَحْدَهَا"، فَالمَعَايِيرُ الفَنِيَّةُ لَمْ تَعُدْ كَافِيَةً فِي تَحْدِيدِ قِيمَةِ العَمَلِ الأَدَبِي، بَلْ هُنَاكَ جَوَانِبٌ أُخْرَى غَيْرَ فَنِيَّةٍ، تَتَدَخَلُ فِي تَحْدِيدِ القِيمَةِ، وَهَذِهِ الجَوانِبُ قَدْ تَكُونُ اِجْتِمَاعِيَةً أَوْ نَفْسِيَةً أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ العَمَلُ الأَدَبِيُ يُعَبِّرُ عَنْهَا بِطَرِيقَةٍ غَيْرَ مُبَاشِرَةٍ، وَيَنْبَغِي أَلاَّ تَكُونَ هِيَ الأَسَاسُ الأَوَّلُ فِي تَقْيِيمِهِ.

مصادر ومراجع:

1- شكري عزيز الماضي: في نظرية الأدب، دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1993.

2- عبد المنعم تليمة: مقدمة في نظرية الأدب، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، مصر، ط1، سبتمبر 1997.